تسخير الـــــتَّنْوِير في تبرير الـــــنّيْر *

ترجمة

أ. أحمد شقرون

جامعة الجزائر

* العنوان من وضع المترجم مقابل عبارة " Pacifier, éclairer" الواردة في النص الأصلي.

[...] " بناء على الدّور الجميل المتمثل في احتلال إحـــدى إيّـــالات إفريقيـــا الشمالية، تَبَنَّتْ فرنسا، في هذا الشأن، أقوى وسيلة حضارية ألا وهي التعلـــيم. (...) إن فرض الأمن *وتنوير* هذه الأقاليم إقليما تلو الآخر، وبث فيهـــا مـــن جديد منافع العلم التي هاجرها منذ قرون، تلكم هي المهمة النبيلة التي تنشـــدها وتقوم بها فرنسا (...) فبالتحفيز الذي ستمنحه لمثل هذه المؤسسات، وبالرعاية التي ستوليها للفلاحة، وبفضل *التعليم والاحتلال*، يتعين على الحكومة إرســـاء قواعد قوتها في الجزائر، وتحقيق هذه الثورة المعنوية والماديـــة، الـــتي تشـــكل الموضوع الحقيقي والجدير بكلّ جهودنا" التعليم والاحتلال، الثـــورة المعنويـــة والمادية، هما حجرتا زاوية لصرح أُرْغِمَتْ فرنسا على اقامته، بحكم المسؤوليات التي أخذتها على عاتقها[1] [...]

في ذات الوقت الذي كان يتم فيه، بطرق مختلفـــة، محاولـــة إدخـــال منظومة تربوية في ديار الإسلام (terre musulmane)، كـــان بعـــض المفكـــرين منشغلين بتزويد المعلمين بالوسائل الضرورية لمشروعهم، بينما كـــان الـــبعض الآخر يفكر في طريقة أسرع وأيسر من تدريس اللغة الفرنسية المخيب للأمـــل. وتتمثل هذه الطريقة في التّرجمات، الكتب المحررة باللغـــة الدارجـــة، عـــروض مبسطة لبعض المفاهيم العامة، والتي من شأنها أن تشق الطريق أمام الحـــوار أو، على الأقل، الاتصال. إن الجهد المدرسي قد واكبتـــه جملـــة مـــن المقـــالات ومنشورات *تستعمل* اللغة *العربية الدارجة لشـــرح الفكـــر الأوروبي*. هنالـــك لحظتان في هذا المشروع

1- Genty de Bussy M-P, De l'établissement des Français dans la Régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité, Alger 1833-1834 2 Vol, p 1999

التربوي الشعبي: مهمة Dutrône، في 1834. مع إلى ظهور جملة مـــن المشـــاريع مابين 1846–1847. وفضلا عن ذلك، فإن عدد الإنجازات كان جدّ محـــدوداً، في كل مرّة. ومن المرجّح أن المؤلفات الطبية المبسطة هي التي كانت تنجز، مثل كتاب الطبيب Furnani، دَليل قواعد حفظ صِـــحَّة العـــين" Guide d'hygiène oculaire" في 1843، الذي تعد دراسته المفصلة هامة بصفتها بحثا في علم النفس الطبي، أو مؤلفات الدكتور Bertherand، الذي من بـــاب التـــرويح الطـــبي، سيكتب كثيرا، فيما بعد، في "المبشر" (le Mobacher)، جريدة ثنائيـــة اللغـــة كانت تنشرها المكاتب العربية **

إن الفكر الذي تقوم عليه هذه المؤلفات الطليعية، الوهميـــة والحقيقيـــة منها، يستحق بالأحرى الإهتمام الذي ينم على هذا الحب في الاطلاع، الـــذي ينحصر في فئة قليلة لكنها حيوية وفاعلة، والذي سيكون وراء تحريـــات عـــام 1847ليختفي، بصفة شبه كلية، مع توّسع الاحتلال.

عقب عودته إلى فرنسا، في 1835، اقترح Dutrône مبلغ 1000 فرنـــك لمؤلف شعبي حول الجزائر، يترجم إلى الدارجة الجزائرية. قـــام وزيـــر التعلـــيم العمومي بتأليف لجنة تتكون من خمسة أعضاء للنظر في القضية: Victor Cousin، Genty de Bussy، Jomard، من معهد فلمان (Fellmann) و Demoyencourt، المدير

Le Mobacher édité par l'administration, à partir de 1847.

** هيئات أنشأتها السلطات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، في 1833، من أجل إدارة شؤون بعض أقاليم البلاد. كان يبلغ عدد هذه المكاتب حوالي أربعين مكتبا (49 في 1870)، وكانت تضم 150 ضابطا (206 في 1866). كان كل مكتب يحتوي على طبيب، ترجمان، خوجة، كاتبين مساعدين، شـــاوش وعدد من السّبّايسية (الفرسان) والمخازنية (المترجم).

المقبل للكوليج العربي بباريس.

أمام هذا الجـــمع، وأمام المـــرشحين الآخرين بالطبع، القى Dutrône خطابا ممتازا من ناحية إدراك المعاني والواقع المحلي، حيث أن الكثير من هؤلاء أقبلوا على إعادة قراءاته فيما بعد .

لقد كانت لهذا المستشار، من مجلس قضاء أميـــان (Cours d'Amiens)، إما ثقافة عربية راسخة وإما قدرة نادرة على الملاحظة. فالعديد مـــن النقـــاط المبهمة، التي لم تدرك قط من قبل، قد تم الكشف عنها و التشديد عليها لفائدة المقبلين على التأليف. إن تحليله أعمق من كل التحليلات التي اقترحت إلى غاية 1848، سواء تلك الصادرة عن Genty de Bussy أو عـــن Le Compte Gyot. إن تحليله يبرز، بمنتهى الدقـــة، التباينـــات الحضـــارية، (contrastes de civilisation) الواجب تخطيها والتي تتجلى، بصفة خاصة، عبر كل علاقة مدرسية أو طبيـــة، تقام بين الأوروبيين والمسلمين.

التوصية الأولى: *قبل الكتابة في أي موضوع اقرؤوا القرآن*. بعد ذلك، " يجـــب أن تكون هذه الكـــتابات مجردة مـــن الـــنصوص ذات الصـــــلة بالحيـــاة المترَفة(vie confortable). إن العلاقات المفترض إقامتها مع العـــرب والقبائـــل تختلف اختلافا كبيرا عن العلاقـــات الـــتي تربطنـــا بالبريطـــانيين والألمـــانيين والإيطاليين. فإنني اعتذر للكثير من مواطننا، بإفريقيا، على أنه يتعذر علـــي أن أشاطرهم الرأي بأن تعزيز غزونا يـــكمن في تعزيز التقاليد البارســـية داخـــل أسوار مدينة الجزائر. فينبغي على دعاة الحضارة (missionnaires de civilisation) [...] حتى ينجحوا لدى السكان الأجانـــب أن يقـــــلدوهم في ســـلوكاتهم

الخارجية" [1] لا حاجة إلى تغيير اللباس، العادات، الشيء الذي اكتسى معنى معتبرا في أعين بعض المربين.

عندما قررنا الحياة في افريقيا، فلا مجال للإلتفات إلى السواحل الفرنسية وإنما إلى جبال الأطلس.

لقد تم معالجة التفوق الأوروبي مع التعبير عن الخيبة الناجمة عن التجربة: "*كما اعتقد بأنه لا يجب أن نكلم القبائل والعرب عن خصائلنا وفضائلنا دون أن نُقِرَّ لهم بعيوبنا ورذائلنا*" . فمن السهل على كل واحد منا أن يُكَوِّنَ رأيا خاصا به حول هؤلاء وأولئك.

في غياب التفوق المعنوي يظل التفوق العلمي قائما. يقول Dutrône في هذا الشأن: "*يجب أن نعلنَ جهارا بما تدينه أوروبا لإفريقيا*"، وإن تفوقت أوروبا على أساتذاتها، فلأنها، خلافا لهؤلاء، انفتحت دوما على الشعوب الأخرى. هذا هو المثال الواجب الإقتداء به .

إن هذا لا يمس البتة بصعوبة ترغيب الأفارقة في هذا العلم الذي لا يرفضون الحكم عليه فقط، بل مجرد الإطلاع عليه، الشيء الذي يجعل كل أمل في التطور منعدما .

كيف يمكن فرض حب الإطلاع، الإجبار على الشك،و اطلاق الشرارة التي توقد الرغبة في معرفة أحسن أو في معرفة مخالفة؟ كيف نفتح مجرى ماء (une voie d'eau) أمام جناح هذه السفينة الجانحة منذ قرون خلت، ليس للإجهاز

1- Archives Nationales, F.80.1846

عليها وإنما لإحداث وثبة الخلاص؟ هذا هو السؤال المطروح والذي يطرحه كل واحد منا لفترة طويلة.

ومن غير أن يستعمل Dutrône النظرية، فإنه، بضربه بعـــض الأمثلـــة، يعـــرض الموقف الذي كان يتبناه الأطباء عموما: التحول إلى ساحر لإبطال السحّر. إن التنبؤ بكسوف ما، تحقيق بعض العلاجات الخارقة، *" ثم نقول لهـــم: إن قـــوة إحداث مثل هذه الخوارق وكذا علم التنبؤ بحركات الأجرام، يحصل عليهمـــا بدراسة كتبنا وارتياد مدارسنا"* [1] . عندما يتم الإقناع بأن هـــذه المعجـــزات المزعومة ليست سوى منجزات العلم، يمكن لنا أن نأمل بأن الجميع سيرغب في الحصول على هذا الفن العجيب. وبعد تجريد الكون من قداسته نكـــون قـــد رددناه إلى المستوى الإنساني.

إن ذلك لم يكن سوى أمنيات. في 1837، حظيت ستة كتـــب مـــن ضمن سبعة بمكافأة: كتابان في النحو، ثمانية قـــواميس وكتابـــان في المحادثـــة. وهكذا كنا بعيدين عن الآفاق المنشودة. ومن جهة أخرى، كان علم النحـــو و التراكيب يعبر بهما عن الأفكار، و لم يخض أحد، حـــتى ذلـــك الحـــين، بنيـــة اللغات... إلا أن هناك مصنَّف (compilation) ظهر منذ 1836-1937 وهو يبدو أقرب إلى الواقع الحيّ: "نصوص مختارة" (chrestomathie) من تأليف Bresnier، أستاذ اللغة العربية بمدينة الجزائر. إنه عبارة عن مجموعة من الرسائل، إيصالات، عقود الزواج والطلاق، نُبذَ عن التركة، مترجمة ومشروحة أحيانا.

1- Archives Nationales, F80.1846

إن هذا المصنف الذي أعيد طبعه عدة مرات، كان ذات فائدة كبيرة لرؤساء المكاتب العربية وكل الذين يشاركون في الحياة القضائية. كما قام بدوره Charles Solvet، مستشار بمجلس قضاء الجزائر، بترجمة مؤلفات عربية إلى الفرنسية، من بينها: " *وصف بلدان المغرب*" لأبو الفداء

بعد مرور عشر سنوات ، تم بَذْلُ مجهود جديد من أجل النشر عقب أشغال اللجنة العلمية الخاصة بالجزائر، و فضلاً عن ذلك، قام ثمانية معلّمين بتكييف كتب مختلقة ذات صلة بالمطالعة ومبادئ اللغة.

إن الاقتراح الهام والطريف جدا هو ذلك الذي اقترحه الناشران Fortin و Masson، الكائنان بساحة مدرسة الطب بباريس. فقد بداهما أن سكان الجزائر لم يدركوا بعد معنى الجنسية الجزائرية، " فالبنسبة لهؤلاء، الوطن هو القبيلة. فلم يدركوا بعد معنى هذا الوطن الواسع الذي حققه لهم الغزو الفرنسي" *إن واجب التعليم الفرنسي هو إذن تعليمهم قراءة " **أنا جزائري...**"*

ومن أجل تحقيق هذا الغرض، يقترح هذان الناشران الإسهام في نشر نُبذة عن جغرافية الجزائر، بأسماء القبائل، الجبال، الخ، نُبذ عن جغرافية فرنسا وتاريخها. وأخيرا، نشر تاريخ عن علاقات الأوروبيين بالمسلمين مع ذكر" **كل الظروف التي تبادل فيها هؤلاء علاقات الود والتسامح، مع الحرس على نبذ كل الأعمال التي من شأنها أن تعيد الأحقاد والضغائن إلى الأذهان**" [1]

1- Archives Nationales, F.80 1846.

تظل هناك مشكلة تركت ملفات هائلة كانت موضع مراسلات وتقارير متعددة ودقيقة، سواء في باريس أو في الجزائر، والـــتي شـــارك فيهـــا Léon Roches، Demoyencourt، Fellmann، مصالح الجنرال Bugeaud و مصالح رئاسة الحكومـــة والتي كانت تتضارب في أغلب الأحيان، دون أن تجد مخرجا شـــأنها في ذلـــك شأن المشاكل المدرسية.

إنها مشكلة الكوليجات العربية بفرنسا أو في الجزائر، وهو التعـــبير الإداري، على مستوى التعليم الثانوي، عن المشكلة التي سبق طرحهـــا علـــى المدارس الابتدائية: كيف نعلم الفرنسية للعرب والعربية للفرنســـيين، ونطـــور المجموعة اللغوية التي أصبحت ضرورية بفعل تنامي العلاقات التي يعتبرها الجميع خطوة أولى نحو مجموعة عضوية [1]

كان كوليج مدينة الجزائر يعرف حياة مضطربة حيث كانت تـــنقلات التلاميذ تعكس تنقل العائلات المستمر. كانت هذه الأسفار غالبا ما تمنح الطلبة ذهنا متوقدا ومحبا للإطلاع (curieux)، لكن قليلا من المواظبة على العمـــل. لم يختلف المدير الجديد كثيرا عن سابقه ويبدو أن العديد من الأساتذة كانوا علـــى شاكلة رئيسهم في السلّم الإداري، إلى حـــدّ أنـــه، في 1842، تمّ اللّجـــوء إلى الرّسائل المغفلة، الغنية بالتفاصيل حول الحياة الفردية لكلّ واحد منهم، كـــأن يكون المدير، مثلا، قد تعاطى المتاجرة بالجلود، بينما تتناول بـــاقي الرســـائل الأخرى حالات السُّكر أو ما يسمى بـــالأمراض التناســـلية. فـــردّ الـــوزير

1- Archives Nationales, F80.1562,1572,1571,1732,1849, 1851, 1842, 1843 (concerne le collège d'Alger et les cours de langues).

على ذلك بإرساله المفتش Artaud، مُزَوداً بتعليمات سرّية ودقيقة، وصلت منها نسخة واحدة إلى الجنرال Bugeaud. كانت الرسائل تلّح على نقطة يدرك المؤلف أنها عزيزة على الإدارة: توظيف شبان جزائريين و اجبار الجميع على تعلم لغتهم [العربية] بالكوليج منذ 1840.

إن العائلات المسلمة متشبتة بنفورها من التعليم الأوروبي، كما ورد في هذه الرسائل، نظرا للسمعة المشبوهة للسلك التعليمي.كما أن معرفة العربية لم تتطور لأن السيد Jubien لم يكثرت بذلك. ومن جهتهم فإن الشبان الذين يُلَحُّ على تعليمهم بباريس لم يتعلموا الفرنسية أكثر من تَعلُّم الفرنسيين العربية بالعاصمة الجزائرية. ورغم كل التوصيات الوزارية وتوالي *المذكرات* فإن كل واحد كان يبدى نحو لغة الأخر عدم اهتمام شبه تام. كانت مهمة السيد Artaud تتمثل في ايجاد علاج لهذه المعضلات. إن المذكرة التي كان يحملها لم تترك أدنى شك حول عزيمة باريس على بلوغ النتيجة بأي ثمن، إذ جاء فيها، كذلك، أنه إذا رغب العرب عن التكلم بالفرنسية، فإنه يجب على الفرنسيين أن يتعلموا العربية. وكما ترون فإنه لم يحن الأوان بعد للتخلي عن المشاريع الكبرى.

إن تعليم الفرنسية للعرب يطرح سؤالا: هل كان ينبغي تعليم الصغار أم الكبار؟ لقد تقرر فعل الأمرين معاً: الكوليج للأطفال والدروس المسائية للكبار حيث تم إنشاء دروس مسائية للأعوان المحليين (chaouchs)، المستخدمين الجزائريين، و" السِّبَايْسية" (spahis)! وبنفس الطريقة، تم تخصيص دروس للموظفين الفرنسيين العاملين، لا سيما العساكر المتواجدون في مهمة خاصة. لا

يمكن لأية توْصية، ملزمة، نوعا ما، أن تقنع المستخدمين الآخـــرين بالتضـــحية بأوقات راحتهم، مهما كانت المزايا المالية أو المهنية الموعودة.

كانت باريس ترغب في أن يتعلم المعلمين، خاصة، العربيـــة ليلقنـــوا مبادئها لتلاميذهم الأوروبيين، الأكثر تقدما في هذه اللغة، وبالتـــالي تفضـــيل هؤلاء المعلمين على غيرهم." مع الأسف فإنه، من النادر أن يفضل معلم علـــى آخر"، يقول Lepescheux، امضيفا، حتى يدفع الوزارة إلى مزيد مـــن الواقعية: " من الصعوبة بمكان لمعلم مسكين أن يتفرغ بجدية لتعلّم مثل هذه اللغـــة (..) ليس فقط لأن الوقت ينقصه، لكن عقله، المرهق بفعل التوتر الشـــديد الـــذي يتطلبه التعليم والمراقبة في قسم مكتظ يضم بين 50، 60 أو 80 طفلا، غير قادر على الاقبال على دراسة طويلة وجادة." ويلخص Lepesheux قوله بهذه العبارة الرائعة: " المعلم الابتدائي هو الرّجل الكادح المكرّس لإنارة فكر الشـــعب " إذا كان تلقي *مذكرة تهديدية* يجلب لمعلم الفرنســـية أو العـــربية ، علـــى حـــــدّ ســـــواء ، بـــعض الطلـــبة المستمعين (auditeurs) (حيث اقتضى الأمر إلى حدّ تهديد الأعوان المساكن بغرامات معتبرة في حالة التغيب)، فإنه سرعان مـــا تلاشى الحماس. لم يتجاوز عدد الطلبة الأوروبيين للأستاذ Bresnier ، بمدينـــة الجزائـــر، 20 و 25 طالبـــا، ليـــنخفض بعـــد عـــام 1848. و تحصـــل الأستاذ Cherbonneau على 7 طلبة بقسنطينة، في 1852، بينما تحصل الأســـتاذ Combal على 11 طالبا، بوهران، في نفس السنة. من المحتمـــل أن *كرســـيي أستاذتيهما* قد أنشئا، في 1846، بينما كان *كرسي أستاذيه* الجزائر موجودا منذ 1837. وهكذا، *يلاحظ أحد الأباء اليسوعيين بن عكنون: " إن الرّغبة المطلوبة لتعلم العربية في تراجع مستمر لأن استعمال هذه اللغة قليل الإحتمال " .*

وهكذا، تكون [سلطات] الجزائر، في 1846، قد حلت بشكل نهائي المشكل بتعويضها الدروس العمومية بدروس متخصصة لصالح المستشرقين المقبلين على التخصص. أبْدّى من جهته، Fellmann، من باريس، معارضة لهذا الحل مفضلا أنواعا من التربصات التكوينية لمستخدمي مكاتب الأهالي المدنيين والعسكريين. فقد بدا له أن مشكل اللغة الضيق قد تم تجاوزه وأن المشكل الأهم هو معرفة البلاد. لقد تم الاقتصار إذا – حتى لا يظن البعض أنه تم التخلى عمّا سبق – على سياسة ثَبَتَ عدم جدواها وهي سياسة التشجيعات المقرونة بالمكافآت نوعا ما: " سيكون ذلك على أي حال أحسن من التقوقع في الأعمال الرتيبة البالية لجامعة فرنسا"، كما سبق و أن لاحظه Urbain.

Source : Yvonne Turin, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, écoles, médecines, religion, 1830-1880, Ed Houma (pp.36 et 56-62)